جهد الأصمعي في رواية الأخبار والقصص التاريخية

عرض ودراسة : أ.د إياد عبد المجيد إبراهيم
جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا / فرع أبو ظبي

لم تختلف المصادر التي ترجمت للأصمعي في اسمه وسلسلة نسبه ، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع ... [1] وقد ورد في الكثير من المصادر نسبته إلى باهلة ، وذكر المبرد أن " معن هو زوج باهلة [2]" ، ويتفق الجزري مع ابن خلكان في أنّ النسبة إلى باهلة غير صحيحة " وإنما باهلة اسم امرأة مالك بن اعصر ولدت له سعد مناة بن مالك .. [3]" ولقب بالأصمعي ، وذلك لأنه نسب إلى جده (أصمع) وتتفق المصادر التي ترجمت للأصمعي وذكرت مولده على أنه ولد سنة 123 هـ في خلافة (هشام بن عبد الملك) وقضى أكثر من تسعين عاماً فيكون قد عاش تسعة أعوام في العصر الأموي ، وأربعة وثمانين عاماً في العصر العباسي وأمضى الشطر الأكبر من حياته في البصرة مكان ولادته ومستقر آبائه وأجداده ، فقد كان فيها حيّ يحرف بحي بني أصمع . [4]

وقد عاش الأصمعي في الدولة الأموية التي كانت الثورات تكاد تمزق إقليمها ، فينتهي الثائرون ووقتها كان في عامه التاسع ، فهو إذن عاصر الدولتين ، وعاش التحويلات المفاجئة في مختلف نواحي الحياة ، وتمتع بشهرة واسعة فقد " كانت الخلفاء تجالسه

---

[1] ينظر كتابنا : الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي 13 – 135 ففيه تفصيل واف لترجمته وسلسلة نسبه وكتبه وعلاقته بالخلفاء

[2] نسب عدنان وقحطان : 11

[3] ينظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 60/1

[4] ينظر أخبار أبي نواس لابن منظور 1 /15

وتحب منادمته "[5] ، مما دفع أحد معاصريه أن يبالغ في وصفه قائلاً : " عجائب الدنيا معروفة معدوده ، ومنها الأصمعي " [6]

وكان لثقافة الأصمعي روافد عديدة أهمها : علوم القرآن الكريم وقراءاته والحديث الشريف والشعر العربي والأخبار وقصص الأعراب والأيام واللغة ، ولم يقف عند مدينته البصرة في طلب العلم ومربدها وباديتها بل كان لإقامته في مكة والمدينة ، [7] وبغداد وخراسان [8]، أثر واضح في ثقافته تمثل بمروياته .

وتجمع المصادر أنه توفيّ بالبصرة سنة 216 هـ [1]برواية عبد الرحمن ابن أخيه [2].

مصـــــادر الأصمعي التاريخية

١ الأخبار

قبل أن يصبح التاريخ علماً له نظرياته وأسسه الفلسفية وقوانينه ، تحقيقاته وتعليلاته ، لدى ابن خلدون ومن جاء بعده ، كانت الكتابات التاريخية عند العرب تسير على وفق أنماط متصاعدة تتفاوت في عمقها وسرعتها وتأثرها بالإقليم والعصر ..

ولابد لنا من إلمامه بتطور تلك الكتابات التاريخية ، ورصد اتجاهاتها وتمحيص ما يتصل بها من سرد حوادث وتيارات سياسية واجتماعية ..

ويمكن أن نتوقف عند القرن الثاني للهجرة ، ولدى بعض رواة التاريخ والمغازي والسيرة من أمثال وهب بن منبه (ت 411 هـ ، وعروة ابن الزبير ت 94 هـ ، وشرحبيل بن سعدات 123 هـ وعاصم بن عمر بن قتادة ت 120 هـ) .

فقد كانت كتابات هؤلاء في المغازي تمهيداً هيأ الأرضية اللازمة لمن جاء بعدهم كالزهري والواقدي وابن إسحاق .

أما الإخباريون فقد شاركوا بجمع الروايات التاريخية من شتى مصادرها من الوثائق الرسمية والنقوش الأثرية في القليل النادر ، ورواة القصص والنسابة ، وشيوخ

---

[5] شذرات الذهب 2/ 37

[6] مراتب النحويين 59 .

[7] ينظر معجم الأدباء 387/6

[8] تاريخ الرسل والملوك 596/7

[1] تاريخ بغداد 430/10

[2] نفسه 419/10

القبائل ، ثم رتبوا تلك المادة بعد نقدها وتمحيصها ، ودونوها على الورق في شكل كتب ومصنفات ورسائل ..

لقد انصب دور الإخباريين على جمع الأخبار كافة من مظانها ، وعمت تلك الحركة الأمصار الإسلامية في المدينة والعراق والشام ومصر ..

وشكلت الروايات الشفاهية المتواترة والمحفوظة في ذاكرة الرواة عن شتى الأخبار المتعلقة بالتراث التاريخي والإسلامي عصب ومحور عملية الجمع .. ولم يدخر الإخباريون وسعاً في الاتصال بشيوخ القبائل ورواتها لجمع تراثها النسيبي ، فضلاً لجمع الأخبار والاعتماد عليها في وضع تواريخ تحفل بشؤون الأمة واتصال تراثها وترابطه ، ومصداق ذلك أن جهود الإخباريين اتجهت نحو (التاريخ) بمفهومه الصحيح .. فقد أهتم عوانة بن الحكم (ت 147 هـ) وهو أستاذ الأصمعي ، بتوظيف أخباره في تصنيف تاريخ الإسلام حتى خلافة عبد الملك ، وأبو مخنف استخدم مادته في التاريخ لصدر الإسلام ، ثم أرخ (لإخبار صفين) على حدة . ثم حوادث العراق حتى نهاية العصر الأموي .

وتوّج المدائني علي بن محمد (ت 225 هـ) المؤرخ البصري كثير التصانيف جهود الإخباريين وبزهم جميعاً حين أرخ التاريخ العربي برمته من الجاهلية حتى مطلع القرن الثالث الهجري ، وفي جوانبه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة وكثيراً ما روى الأصمعي أخباراً حدث بها عن أسفاره ورحلاته في الفيافي النائية بحثاً عن الخبر واللغة والشعر ، وهي على وفرتها تدل على أنه تعشق حياة البادية وألف عيشها ، وعرف مسالكها لطول ما ارتاد سهولها وحزونها ووهادها قاصداً القبائل في منازلها ومرابعها ، ومصايفها .

والحق أن علماء اللغة ورواة الأدب والأخبار قد سبقوا الأصمعي في هذا النهج قصد الفائدة ، ونهلوا من المعين نفسه الذي نهل منه ، غير أنه تميز عنهم في مسائل كثيرة لم يسبقه إليها أحد منهم ، فهو لم يكتف مثلاً بالبحث عن المنتديات المعروفة التي يجتمع فيها الشعراء والكبار ، ولكنه يستوقف الرائح والغادي من الأعراب .

ولعل الأصمعي هو الوحيد الذي جعل مجتمع الأصمعي كله مدرسة له ، فقد آلى على نفسه أن لا يترك ألواحه من يديه إلا وقت الحاجة ، فكان يأتي سوق البصرة ،

ويجلس إلى صاحب حانوت يسمع ما يتحدث به المشترون والباعة ، ويعبر الأزمة فيتحدث هنا مع كنّاس سمعه يغني بأبيات من الشعر ويصادف متسولاً ، ويسمع بعض النائحين أو النائحات يندبن أمواتهن .. حتى الأطفال الصغار لم يفلتوا منه ، وربما وقف إليهم يسألهم عن ألعابهم وأصطلاحاتهم فقال : " رأيت في البادية صبية يتراجزون فوقفت اسمعهم فمنعوني ، فتنحيت جانباً وصرت أدون أقوالهم فمر بي شيخ من ذلك الحي ورأى ما أصنع ، فقال : " أتكتب قول هؤلاء الأقزام والأدناع ؟! ففرحت بكلمة أدناع ومعناها السفلة فدونتها " [1]

لقد جمع الأصمعي أخباراً كثيرة دونها في ألواحه ودفاتره ، ورواها الناس في حلقاته ، وكانت في حقيقتها على أنواع ، منها ما يصلح أن يكون خبراً تاريخياً من مثل ذكر الوقائع والحروب والأيام والأحلاف والمنافرات في الجاهلية ، أو الغزوات والجهاد والفتوحات في صدر الإسلام والعهد الأموي ، ومنها ما يدخل في سير الملوك والقواد والولاة والحكام والأعلام في التاريخ ، وبعضها يعتبر جزءاً من تاريخ الشعراء وأحوالهم وسيرهم ، كما روي الأصمعي إلى جانب ذلك كله أخباراً تكشف جوانب كثيرة من عادات وأخلاق القبائل والمجتمعات العربية وتصرفاتهم في معاملاتهم ومشاكلهم وطرق التحكيم عندهم ، إلى غير ذلك . [2]كما ضمت دفاتره وأوراقه قدراً كبيراً من اخبار العرب في صدر الإسلام والعهد الأموي حتى أيام بني العباس ، العصر الأول ، الذين عاصرهم ، ولم يدع خليفة ولا قائداً ولا والياً ولا شاعراً إلا ذكر نبذة عن شخصه وسرد بعض أعماله وتصرفاته .

وكان مذهبه في جمع الاخبار وقبولها كمذهبه في أخذ اللغة والشعر ، فكان لا يقبل غير الصحيح الموثق الثابت ، ولا يسكن إلى رواية رجل مطعون بصدقة أو مشهور يضعف ذاكرته ولا يتأثر بالمغلوط الشائع بين الناس ولكنه يسلك على مذهبه في البحث والتدقيق والتحقيق [3].

لقد روى الأصمعي الأخبار عن الخليل بن أحمد الفراهيدي [4]وعن يونس بن حبيب [5]، وأبي عمرو بن العلاء [6]، وروى عن شيوخ آخرين من ذلك روايته عن شيخ

---

[1] وفيات الأعيان 346/2 .

[2] المصدر نفسه 349/2 .

[3] ينظر الأصمعي صاحب اللغة : 134 وما بعدها فثمة نماذج لسبب مقتل زهير العبسي وربيعه بن مكدم وعمرو بن معد يكرب ، وأخبار مسلمة بن عبد الملك ومصعب بن الزبير وأخبار قبائل حمير .

[4] ينظر الأغاني : 212/6

[5] الأمالي للقالي : 61/1

من الرباب ، وعن شيخ بن بكر بن وائل [7]، كما روى عن أبيه بعض أخبار الجاهلية [8]. واخبار العمالقة وحروبهم ومجالسهم واشكال معيشتهم وعاداتهم ، وأحوال بعض ملوكهم وعظمائهم وحدث عن العرب البائدة والعاربة والمستعربة ، وروى الكثير عن عرب الجاهلية قبل الإسلام وأيامهم والحروب التي استعرت بينهم ، فذكر حرب البسوس بين بكر وتغلب وروى اشعار ابطالها كالمهلهل وجساس بن مرة وأخته جليلة والحارث بن عباد وجحدر وغيرهم ، وعن حرب واحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وعن ابطال بني عبس كزهير بن خزيمة وقيس بن زهير وعنترة بن شداد مع ذكر أشعارهم التي قالوها في حروبهم ، وتحدث عن فارس بن جشم ودريد بن الصمة وعشقه الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وعن ربيعة بن المكدم وبطولاته وحادث مقتله الغريب . كما نقل أخبار الصعاليك والعدائين كعروة بن الورد والشنفري والسليك بن السلكة وأخبار اللصوص وقطاع الطرق الطرق واشعارهم .

ومن ينعم النظر فيما رواه الأصمعي من أخبار عرب الجاهلية وحدهم يكاد ينبئ أنه لم يترك حادثاً خطيراً من حوادث هؤلاء إلا روى شيئاً عنه إن لم يأت بمعظم أخباره ، وهذا ما دفع رواة الأدب والتاريخ إلى القول إنه نقل لنا معظم أخبار الجاهليين وأدابهم وشعرهم ، فقد حرص الأصمعي على رواية أخبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وحملت كتب الأدب الكثير منها مع أشعارهم وأخبارهم [1]

وكان الاصمعي يمهد في مجالسه بتقديم يتصل بموضوع القصيدة وأخبار الشاعر فالشعر الذي يتصل برحلة أمرئ القيس إلى قيصر يتضمن إشارات وافرة عن الرحلة [2].

وينطبق ذلك ما رواه لدريد بن الصمة [3]، والأعشى [4].

كما دقق الأصمعي في القصائد التي حملت بين ثناياها أخباراً ، فتنبه إلى توافق هذه الأبيات مع النص أو الخبر ونقد الرواية حين تناول ذلك بشرحه للنص [5].

---

[6] ينظر المستجاد من فعلات الأجواد 166 .
[7] ينظر كتاب الاختياريين 498 .
[8] عيون الأخبار 201/3
[1] ينظر في الأغاني أخبار الطيئة 172/2 وأوس بن حجر 73/11 ، لبيد بن ربيعة 361/15 ، وتأبط شراً 133/21 . وحسان بن ثابت 168/17 وفي ذلك الأمالي 109 أخبار حاتم الطائي وفي خزانة الأدب 325/1 أخبار الحارث بن حلزة .
[2] ينظر ديوانه : 7
[3] ينظر ديوانه 27
[4] ينظر ديوانه 252 .

أما منهجه في رواية الأخبار ، فالأصمعي يدرك ما يحمله الناس ويزيدونه ومن صور شكه ما جاء ببعض الروايات منها على سبيل المثال ، مرور شأس بن زهير بأبيات من بني عامر بن صعصعة ، وأبيات من بني غني على ماء لبني عامر ، في روايته بقتل زهير وابنه شأس ..[1]

كما تناول الأصمعي القصص المصنوعة والشعر الذي نحله الرواة فيها [2]. أما شروحه التي تضمنت رواية الأخبار التاريخية فقد اتبع الأصمعي فيها الإيجاز في القول ففي قول الحارث بن حلزة :

أم علينا جرّى إياد كما قيل لطسم أخوكم الأباء

" قال الأصمعي : كان جديس وطسم أخوين ، فكسرت جديس على الملك خراجها ، فأخذت طسم بذنب جديس " [3]

وقد ذكر الأصمعي خبر ثمود في قول علقمة :

رغا فوقهم سغبُ السماء ، فداحض بشكته ، لم يستلب ، وسليب

" ..... حكى الاصمعي ، قال : هلكت ثمود ، حين رغا السقب ، ثلاث رغوات ، فأمهلوا ثلاثاً ، ثم أهلكوا عن آخرهم .[4] "

واعتمد الأصمعي التسلسل المنطقي في رواية الخبر ، وهم ملوك فارس وتملك عليهم (من شاءت) وكانت عنان تملكهم ملوك الروم ، فلما غلب كسرى ، فضعف أمر كسرى ، وغزا بعض العرب بعضاً " [5]

وحين تختلف رواية الخبر عند الاصمعي ، ولا يجد في مصادره ما يوثق أحدهما للاخذ به ، يشير إلى ذلك دون ان يقطع بحكم ، فهو حين يروي خبر مقتل زهير بن خزيمة العبسي وابنه شأس من غير واحدٍ من الأعراب جاء فيه أن الغنوي الذي قتل شأس بن زهير لجأ إلى منزل عجوز من بني إنسان " فقالت له العجوز : لا تبرح حتى يأتي بنيّ فيأسروك . قال الأصمعي : فأخبرني مخبران ، اختلفا ، فال أحدهما :

---

[5] ينظر كتاب الاختياريين 194 في خبر مقتل جد النعمان الذي كان يكنى بأبي قابوس
[1] ينظر الأغاني 91/11
[2] ينظر الأغاني 255/18 .؟
[3] شرح القصائد السبع : 383 : 384
[4] شرح اختيارات المفضل : 1596 .
[5] شرح القصائد السبع : 470 .

إنه أخذ سكيناً فقطع عصبتي يديها ، وقال الآخر : أخذ حجراً فشرخ به رأسها ثم أنشأ يقول : ولأنت أشجعُ من أسامة أو منيّ غداة وقفت للخيل " [1]

ولم يحفل الأخباريون كثيراً بالإسناد قدر اهتمامهم باللباب ، ولعل ذلك يفسر حملة أهل الحديث عليهم ، كذلك تفصح كتاباتهم عن حذف طرائق العرض في تسلسله وحيويته وحبكته . حتما اعتمد الطبري فيما بعد منهج الاسناد في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) فجمع الأحداث التاريخية ودعمها بسند أو أكثر توخياً للصدق والأمانة العلمية ، وهو بذلك أراد توثيق الخبر التاريخي بنفس المنهج الذي يوثق به الخبر الشرعي ، ولذلك فقد تميز كتاب الطبري بسعة معلوماته ، وجمعه لروايات الأخباريين الذين سبقوه وحفظه لها ، حيث فقدت الكثير من كتبهم ، وبقي كتابه الموسوعي الذي استوعب غالب المصنفات التي سبقته كمؤلفات المدائني والواقدي وهشام بن محمد الكلبي والأصمعي وعوانه بن عبد الحكم ، والهيثم بن عدي .

لقد احتفظت المصادر التاريخية بمادة أدبية كبيرة ، وقد أثبت الطبري من خلال روايته لتلك النصوص بأنه إلى جانب ما عرف به كرجل دين ، ومفسر ومؤرخ ، أنه أيضاً راوية للشعر ، فإذا كان كل من المفضل الضبي (ت 178 هـ) والأصمعي (ت 216 هـ) وأبي زيد القرشي (ت. 272 هـ) قد عدوا من رواة الشعر العربي (الثقات) فإن جمعهم واختيارهم للشعر العربي ربما يبلغ مستوى ما بلغه الطبري من جمع المادة الشعرية في تاريخه ، وقد استقرأ هذه النصوص ورصدها وحققها وحللها واستنتجها أحد الباحثين اليمائين [2]، وهي نتاج عصور تاريخية عديدة ، فكانت المادة الشعرية ، تعبر عن مؤثرات تاريخية فاعلة ، وتكشف عن غايات اختلفت باختلاف الرواة واختلاف غاياتهم ، واختلاف دوافع ترويجها ، وكل هذا ورد موزعاً ومتأثراً بين أجزاء الكتاب الكثيرة ، وتغطي مرحلة تاريخية طويلة تبدأ من أعماق التاريخ وتنتهي عند أوائل القرن الرابع الهجري .

لقد أورد الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك نصوصاً شعرية كثيرة ، استجابت لحاجة علمية حيث كان يرى أن تلك النصوص قد صدرت عن واقع تاريخي معين ، وصاغت مواقف معينة من أحداث التاريخ ووقائعه فالتبست بتاريخ تلك الأحداث

---

[1] الأغاني 91/11 .

[2] ينظر محيي أحمد ناصر السقدي / جامعة عدن 2006 رسالته الشعر في تاريخ الطبري.

وتداخلت معها .. من هنا لابد من فهم علاقة التاريخ بالشعر وعلاقه الشعر بالتاريخ التي انتهجها الاصمعي[1]. ولا نشك في أن الإضطراب والانتحال لعب دوراً كبيراً في نسبة النصوص الشعرية إلى قائليها في كتاب الطبري ، فضلاً عن الدس واختلاف الروايات ، أو تكلف الرواية واضطرابها ، كل هذا عرض عملية صناعة الأشعار ونحلها لتتوافق مع سيرة الرواية أو القصة ، أو الأسطورة ، فتأتي النصوص الشعرية مرافقة لكل ما يروي .

القصـــــة التاريخية

شكلت القصة التاريخية مادة مهمة في الشعر يستمدها الشاعر من بيئته أحياناً ، يسجل حوادثها أشخاص المجتمع القبلي ، وحياة الجاهلية مليئة بالشواهد التي تدلل على وجود القصة ، وتشير إلى أهميتها في حياتهم وأدبهم . واعتمد الأصمعي أسلوب الاختصار حين يقدم للقصة في روايته مبيناً الدافع لقول الشاعر عند روايته لديوان الشاعر ، أو لدى شرحه لنص من النصوص ، ومن ذلك :

" قال أبو حاتم : قال الأصمعي : خرج النعمان بن المنذر وكان كسرى عمَّله على العرب ، فمرّ على إبلٍ لسنان بن عائد الضبي من بني عبس بن خبيب ، فقال : ما رأيتُ كاليوم إبلاً ليست لملك . وكانت العرب إذا بلغت إبل الرجل ألفاً فقأ عين جمل منها ..." [2]

لقد كانت القصة التاريخية مادة خصبة في رواية الأصمعي حين تناولها في شرحه للنص حين أدرك علاقتها بالأحداث وقدرتها على رسم صورة دقيقة للمجتمع الجاهلي من ذلك قصة (منشم وعطرها) الذي ذكرها الاصمعي في روايته لديوان زهير [3]والأعشى [4]، وقصة (زرقاء اليمامة) في روايته لديوان النابغة [5]وقصة سليمان عليه السلام والجن وبناء تدمر ، كما تحدث الأصمعي عن الجن وذكر إخبارهم [6].

الأنساب :-

---

[1] انجزنا بحثاً بعنوان (الشعر مصدر فن مصادر التاريخ) تناولنا فيه الأشارات التاريخية في شعر النقائض بين جرير والفرزدق بخاصته وأشعار الإسلاميين والأمويين .

[2] ديوان الطفيل 90 – 93 وينظر أيضاً في قصة قصيدة عجلان بن بكرة كتاب الاختياريين 498 ، المعاني الكبير 1025 ، وقصة أم جندب في ديوان امرئ القيس 40 .

[3] الديوان : 74

[4] الديوان : 153

[5] الديوان 23 وتنظر القصة في تاريخ الرسل والملوك 774/1 .

[6] ينظر المعاني الكبير 567 ، وبهجة المجالس 175/2 ، جمهرة أشعار العرب 275 .

اشتهرت الأنساب كنمط من المعرفة التاريخية ، سعت كل قبيلة من خلاله إلى حفظ نسبها وتلقينه لأبنائها لتظل نقية بعيدة عن الشوائب ، وتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى ، وكان لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام .

ولقد كان لكل قبيلة نسابتها الذين اشتهروا بحفظ نسب القبيلة عن ظهر قلب قصد التباهي والتفاخر به أمام القبائل الاخرى .

ولعب الشعر العربي دوراً كبيراً في حفظ نسب القبيلة ، بل كان الوسيلة الأساسية التي اعتمدها النسابون ، يقول ابن فارس : " الشعر ديوان ، وبه حفظت الأنساب ، وعرضت المآثر ومنه تعلمت اللغة ... " [1]

وللأصمعي يد طولي في علم الأنساب ، إذ كانت صلته الوثيقة بالقبائل ، وعنايته الشديدة بجمع أخبارها وأشعارها وآدابها تقودانه غلى معرفة أنسابها ، وله من الكتب " كتاب النسب " [2]ولكنه من الكتب المفقودة ، غير أن الدكتور عبد الجبار الجومرد وجد في أثناء أبحاثه عن اخبار الاصمعي في المكتبة الوطنية في باريس مخطوطاً بالخط الكوفي على ورق من الجلد باسم " العرب من ابناء هود " يبحث في أنساب ملوك وأمراء اليمن الأقدمين ، وأخبارهم ، وقد دون في مقدمته أن ابا حاتم السجتاني قد نقله عن أستاذه الاصمعي من محاضرات كان القاها في بغداد . وقد طبع هذا الكتاب تحت عنوان " تاريخ العرب قبل الإسلام " على نسخة نفيسة عتيقة كتبت عام 243 بخط يعقوب بن السكيت ، ويعد الكتاب من المؤلفات النادرة التي عثر عليها من التراث العربي ، وقد عثر على نسخة وحيدة منه في مكتبة باريس الوطنية وهذه النسخة الأم نفيسة جداً ، بل لعلها من النماذج النادرة في العالم ، فقد كتبت على ورق الرّق بالخط الكوفي ، وتم استنساخها في العاشر من شوال سنة 243هـ .

ويظهر ان الاصمعي وضع هذا الكتاب لأحد خلفاء عصره ، فهو يقول عند بداية كل فصل : " وبلغني يا أمير المؤمنين " وقال في المقدمة : " أما بعد : فقد أمرت أيد الله دولتك ، وأيدّ صولتك ، وأطال في ظل أفياء السلامة بقاك ، وحجب عن غير نوائب الدهر نعماك ، بان أجمع ما بلغني من أخبار ملوك العرب البائدة الأولية ، وبعضا من

---

[1] الصاحبي في فقع اللغة :22

[2] ذكره ابن النديم في الفهرست 82 ، والبغدادي في ايضاح المكنون 342/2 وذكر في هدية العارفين 624/1 .

سياستهم ونصائحهم ، وأشعارهم وخطبهم ومسراهم في تدبير ما خولهم الله ، ووقائعهم ، فرأيت استفراغ المجهود في قلة ما وصل إليّ من ذلك عذراً ، ووجدان ما به الكفاية عسراً ، لانقطاع أخبارهم ، ومحو آثارهم ، فاتعبت ركبي بجوب القبائل ، مستقصياً بها رواة الأخبار ، وحفظة تواريخ ما مضى من الإعصار ، فاستقصيت كل من رافقته من النسابين ، وتلقيت ما روته لي الشيوخ المعمرة عن الأجداد السالفين ، إلى أن جمعت منة هذا القدر القليل ، امتثالاً للأمر العالي الجليل .. والذي وقع عليه إجماعهم يا أمير المؤمنين : إن أول ملك تتوج من العرب هو قحطان بن هود النبي عليه السلام ، وهود هو أول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام . " [1]

وجاء في آخر الكتاب " قال أبو يوسف يعقوب بن السكيت هذا آخر ما وصل إليّ من تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي " .

وفي مكتبة المجمع العلمي العراقي نسخة مصورة منه ذكرها ميخائيل عواد في مخطوطات المجمع العلمي العراقي – دراسة وفهرسة [1 بغداد 1979 ص 233 رقم 6]

وقال عنه جواد علي : " وفي كتاب تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، وصايا وعظات في أصول الملك والحكم نسبها إلى ملوك العرب الماضين قبل الإسلام دونها للخليفة المأمون لتكون له هادياً ومرشداً في كيفية الحكم .

ولقد شكك حمد الجاسر [2]في مجلة العرب في الكتاب ، ورجح أنه للحسن الهمداني وقال : لعله قطعه من تاريخ حمير .

غير أن بروكلمان ذكره للأصمعي [1]وأشار إلى نسخة منه في المتحف البريطاني وسماها " نهاية الإرب في أخبار الفرس والعرب " [2].

وقام بتحقيق نسخة باريس الشيخ محمد حسن آل ياسين عام 1959 ونشرها باسم " تاريخ العرب قبل الاسلام " .

---

[1] تاريخ العرب قبل الاسلام بتحقيق الشيخ آل ياسين / المقدمة

[2] ينظر رأي الجاسر في العدد الأول من مجلة العرب (رجب 1386 هـ) وفيها ذكر رأي جواد علي

[1] تاريخ الأدب العربي . 94

[2] المصدر نفسه .

والمتأمل في النص الذي عرضناه من مقدمة الكتاب فيما تقدم ، يجد منهج الأصمعي واضحاً في طريقة جمعه مادة هذا الكتاب وهو يجوب القبائل ويلتقي رواة الأخبار وحفظة التاريخ والنسابين والشيوخ ... آخذا بما وقع عليه إجماعهم بذلك .. ويهمنا أن نشير إلى أن المنهج الأخباري لدى العرب تعرض إلى العديد من الانتقادات ، ومن ذلك ما يروى عن سلاسل الأنساب البعيدة التي يصعب تصديق حفظها على مدى مئات السنين ، كما تعرض لذلك ابن الكلبي وتلك الأشعار التي تروى عن ملوك حمير والأقدمين مثل : الصعب ذي القرنين ، وياسر ناشر النعم وغيرهما .

الأيـــــام

فاقت الأيام بعض الأحيان مكانة الأنساب، وهي عبارة عن مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية . فهي ملك مشترك للقبيلة ، وبقيت كذلك ، حتى القرن الثاني الهجري ، – الثامن الميلادي – حين جمعت هذه الروايات وصنفت .

وقد تداولت الرواة العرب هذه الأيام في قالب شعري خالص أحياناً ، وفي قالب نثري تتخلله الأشعار أحياناً أخرى .. وكان منهج رواة أيام العرب متوافقا مع الموضوع ، ومع الهدف الثقافي الاجتماعي لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية .. وربما كانت الأيام عادات أو فرعاً من الثأر تتضمن المآثر والبطولات التي سجلتها القبائل وراحت ترويها حيث أدخلتها سجل فخرها .. من هنا كانت مادة الرواة وعلمهم بتاريخ الجاهلية .. فحرصوا منذ القرن الثاني على تسجيلها وروايتها .

اعتمد الاصمعي في روايته لهذه الأيام على أساتذته الذين جمعوها عن اعراب وأشياخ أدركوا الجاهلية كأبي عمرو بن العلاء ، كما كان ينقل من الأعراب القادمين من اعماق الصحراء الذين يمثلون منبع الرواية الأول كمسحل بن كعب ، وعمارة بن عقيل ، وأبو بسطام العدوي ، وبذلك يكون الاصمعي قد وقف على أيام العرب مع جملة الأشعار التي رواها . أما روايته لنقائض جرير والفرزدق فهي دون شك تشمل ما جاء من شعر يذكر لتلك الأيام .[1]

وللأيام رواتها المتميزون فهي فن له أربابه ، أخذه جيل عن جيل ، حيث يمثل جيل الرواة الأوائل كأبي عمرو ، والمازني ، ويونس بن حبيب ، والأساس الأول لهذا الفن أما تلامذتهم كأبي عبيدة والأصمعي وابن الكلبي وآخرين ، فهم يمثلون

---

[1] ينظر كتاب أيام العرب : 133

الجيل الثاني الذي أفاد من خبرات أساتذته ، واهتم بالتدوين والرواية ، يذكر بروكلمان إن : " أعظم الفضل في حفظ هذه الأخبار والآثار يعود يعود إلى الكلبيين محمد بن السائب وابنه أي المنذر هشام بن محمد ، وعنهما أخذ المتأخرون " [2].

اتسمت رواية الاصمعي للأيام بالاختصار كما يشير السكري في شرحه لأشعار الهذليين عن يوم الأحث [3]، كما أدرك الأصمعي كثرة الخلاف في رواية الأيام [4]. وتحدث الأصمعي عن يوم ذي قار [5]، وعن يوم داحس والغبراء ، ويوم النفراوات ، ويوم الحلييت ، ويوم (سُمى) ويوم مُلزق[6] ، ويوم كلاب .[7]

دوره في مسجد البصرة الجامع ومجالسته الرشيد

يشير الجومرد إلى أن الأصمعي أنشأ حلقته في المسجد الجامع في البصرة في حداثته ، وفي سن مبكرة قائلاً : " إن مشيخة القراء كانوا يحضرون الأصمعي ، رغم حداثته لأخذ قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء عنه " [1]. وقد عُرف عنه حرصه ودأبه على إظهار جدارته وكفاءته وهو يقف أمام طلابه يلقي عليهم أوثق ما جمع في ألواحه ودفاتره ، وأفضل ما اختزن في ذاكرته من صحيح اللغة وطرائف الأشعار والأخبار ، وقد جمع بين خفة الروح ورقة الطبع ووقار العلم وجلاله . وفي أخبار الاصمعي كثير من المناقشات التي كان يثيرها مع الأساتذة الآخرين في داخل المسجد أمام الطلاب .... كما جرت له عدة مناقشات مع أستاذه شعبة بن الحجاج [2]، وسيبوية [3]وقد تركت هذه الدروس والمناقشات أثراً كبيراً في طلاب العلم من المسجديين الظرفاء الذين عرفوا بسرعة البديهة وحبك النكتة ، أمثال عمرو بن بحر الجاحظ والعباس بن رستم ومحمد بن القاسم (أبي العيناء الضرير) .

وحوالي العام 173 هـ قدم الاصمعي إلى بغداد ، فنزل ضيفاً على صديقه الأمير سعيد بن مسلم الباهلي ، وكان مقرباً من الخليفة الرشيد ، واهتمت بغداد

---

[2] تاريخ الأدب العربي : 30/3
[3] ينظر أشعار الهذليين : 710
[4] ينظر نقائض جرير والفرذدق 689/2 .
[5] ينظر نقائض جرير والفرذدق 639/2 .
[6] ينظر أيام العرب 469 ، الأغاني 92/11 ، شرح أشعار الهذليين 703 .
[7] ينظر ديوان ذي الرمة 946/3 .
[1] الأصمعي (الجومرد) 131
[2] وفيات الأعيان 34/2 .
[3] المصدر نفسه 324/4 – 325

والبغداديون بقدومه مع أبي عبيدة وأجريت المناظرات بينهما وبين علماء بغداد وشيوخها ، وانهمك الجو الفكري بهما أياماً عديدة ، يومذاك كان هارون الرشيد في السادسة والعشرين من عمره ، يتذوق الأدب ، مرهف العاطفة والشعور ، ندي الكف . وأما الأصمعي فكان قد ناهز الخمسين ، متدفق النشاط ، طموح إلى الشهرة والمجد تملأ جوانحه وهو يدخل (قصر الخلد) آمال رحبة وأحلام يتمنى أن تتحقق .

وفي أول لقاء له بالرشيد سأله عن أرجوزة للشاعر رؤبة بن العجاج يمدح فيها أحد خلفاء بني أمية ، فأنشده الأصمعي أولها ، حتى إذا وصل إلى مدح بني أمية انتقل حالاً إلى أرجوزة للشاعر نفسه في مدح جد الرشيد أبي جعفر المنصور ، فسر الرشيد هذه الالتفاته البارعة ، ثم سأله عن قصيدة للشاعر عديّ بن الرقاع في مدح الوليد بن يزيد الأموي والتي مطلعها :

عرف الديار توهّما فاعتادها

فأنشدها الأصمعي ، والرشيد يوقفه عند كل بيت منها ، ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟ فيجيبه الأصمعي وكأنه كان حاضراً في ذلك المجلس ، فيعجب الرشيد بأجوبته وصحة روايته ، ويناقشه أحياناً في قوله ، وكان الرشيد قد درس أخبار هذه القصيدة ، ثم يسأله عما قال الشعراء الحاضرون في ذلك المجلس حين إنشادها ، فيجيبه الأصمعي بما كان قد جرى ، فيقول : أحسنت .. ويواصل الرشيد سؤاله فينطلق الأصمعي بالشواهد والأدلة والحجج ، والفضل بين يحيى يصغي ويعلق أحياناً مداعباً الرشيد [1].

لقد وجد الرشيد في الأصمعي جليساً نادر المثال ، نسيج وحده ، غزير العلم والأدب ، وافر الرواية في الأخبار والقصص والأيام ، ضليعاً في اللغة والشعر والنوادر والأخبار ، فاصطفاه وأحبه ، وقربه منه ، وغمره بجوده وعطائه ، وقد دامت منادمة الأصمعي ومجالسته الرشيد خمس عشرة سنة بدأت حين استتب الأمن في دولة الرشيد عام 173 هـ وأنهاها على اثر نكبة البرامكة في أوائل عام 188هـ وهي الحقبة التي يسمونها العروس لبهجتها وتألق نور حضارتها .

---

[1] ينظر العقد الفريد 138/3 .

والجدير بالذكر أن صلة الأصمعي لم تنقطع قط مع البصرة في أثناء إقامته ببلاط الرشيد ، فقد كان ينتهز الفرصة المناسبة ، كغزو الرشيد لبلاد الروم أو غياب الخليفة في سفر ، فيعود إلى البصرة ليدبر أموره ، ويعرج على المسجد الجامع ليجتمع بطلابه ، أو يتصل بأهله ، وربما ركب ناقته ويمم شطر البوادي صوب القبائل ليجمع منهم الفوائد والأخبار ليعود يحكيها في مجلس الرشيد . يروي الخطيب البغدادي عن الأصمعي : " دخلت على الرشيد ومجلسه حافل – وكنت قد غبت عنه زمناً . فقال : ما أغفلك عنا يا اصمعي وأصفاك لحضرتنا ؟ قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك ، فأمرني بالجلوس ، وسكت عني ، فلما خلا المجلس نهضت ، فأشار إليّ بالبقاء ، حتى لم يبق غيري ، ثم قال يا أبا سعيد ، ما معنى قولك : " لاقتني " ؟ قلت أمسكتني وأنشدت :

كفاك كفّ ما تليق درهماً جوداً وأخرى تعطى بالسيف دماً

قال : هذا حسن ، وهكذا فكن ، وقرّنا في الملا ، وعلمنا في الخلا ، فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً . فأما أن أسكت فيعلم الناس أني لم افهم ، إذا لم أجب ، وإما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولي أني لم أفهم ما قلت [1]" .

لقد حملت إليه صحبة الرشيد أسباب الشهرة والوجاهة ، فأصبح شخصية معروفة مشهورة في أرجاء المملكة الإسلامية بعد أن كان ذكره لا يتخطى حدود مدينته البصرة .

وبعد وفاة الرشيد اعتذر الأصمعي لتلميذه المأمون محتجاً بشيخوخته وضعف صحته ، وكتب إليه يقول : (" ..... أصبحت لا أصلح لمنادمة الخلفاء ") .

غير أنه عاد إلى حلقته في البصرة ، وعظم مجلسه أكثر من ذي قبل بفضل اتساع شهرته وعلو منزلته العلمية ، ومكانته الاجتماعية ، فقصده طالبو الفوائد . وامتد هذا المقام في البصرة حوالي ثلاثين عاماً ، انصرف فيها إلى التصنيف والتأليف حتى أتم عشرات الكتب التي أفاد منها طلاب العلم ، يساعده في ذلك شباب من أسرته منهم عبد الرحمن ابن أخيه وابن أخته أحمد بن حاتم الباهلي ... وعندما بلغ التسعين ، خفّ نشاطه ، ومن المحتمل أنه ترك حلقته في المسجد الجامع قبل وفاته ببضع سنوات ، وانقطع عن الناس ، حتى أغمض جفونه ، وصعدت روحه إلى

---

[1] تاريخ بغداد 9/14

بارئها في ليلة من عام 216 هـ فخرجت البصرة وراء نعشه تودع نابغة من نوابغ ابنائها ، خدم اللغة والفكر والتاريخ سبعين سنة دون انقطاع .

وبذلك نخلص إلى أن رواية الأصمعي للاخبار والقصص التاريخية والأنساب ذات قيمة تاريخية في معرفة تاريخ العرب ، وحضارية تبين عادات العرب ، وطرق تفكيرهم في ذلك الوقت ، فضلاً عن قيمها اللغوية الكبيرة والأدبية ، معتمداً في روايته على اساتذته الذين جمعوا مادتهم وعلمهم عن أعراب وأشياخ .

وقد أتسمت روايته للأيام بالاختصار كما اتبع الإيجاز في شروحه المتضمنة للاخبار التاريخية ، معتمداً التسلسل المنطقي في رواية الخبر ، وحين تختلف رواية الخبر عنده ، ولا يجد في مصادره ما يوثق أحدهما لا يقطع بحكم ، كما كان يدقق في القصائد التي حملت بين ثناياها أخباراً ، وينبه إلى توافق هذه الأبيات مع النص أو الخبر ونقد الرواية .. وظل منهجه واحداً في رواية الشعر ، أو رواية الأخبار والايام وما ارتبط بها ، شديد التحري والتحقيق لا يقبل غير الصحيح الثابت ، يضيق في روايته ، ويصرح بشكل حتى لو كلفه ذلك مناقضة الآخرين [1] واضح الأسلوب غير متكلف ، وقد حرصنا على الإيماء إلى تلك الجوانب التي كان وكدنا فيها أن نبرز الأصمعي رواية للاخبار والقصص التاريخية ، مكتفين بالإشارة لهذه الجوانب في مضائها غير آبهين بحشدها بالقدر الذي تسمح به مساحة البحث .. آملين أن نكون قد عرضنا ولو لإشارات ذات بال . والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

---

[1] ينظر خزانة الأدب 229/4 ، الأغاني 1024/2 ، سرح العيون 352

مصـــــادر البحث ومراجعه

١ الاصمعي حياته وآثاره – عبد الجبار الجومرد ، دار الكشاف ، بيروت 1955 .

٢ الأصمعي ، صاحب اللغة وإمام الرواة ، د. رحاب عكاوي ، دار الفكر العربي بيروت 1988 .

٣ الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي ، د. إياد عبد المجيد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد 1988 .

٤ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، مطبعة دار الكتب ، د. ت .

٥ بهجة المجالس وأنس المجالس ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله ، دار الجيل للطباعة بمصر ، د. ت

٦ البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، طـ 3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1968 .

٧ تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحميد النجار ، طـ 3 ، دار المعارف بمصر 1968 .

٨ تاريخ بغداد – للخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت .

٩ تاريخ الرسل والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعارف 1960 – 1970 م .

10-جمهرة أنساب العرب ، لأبي حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر 1962 م .

11-خزانة الأدب ، لعبدالقاهر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي 1967 – 1980 .

12- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طـ 2 ، دار المعارف بمصر 1964 م .
13- ديوان ذي الرمة ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، مطبعة طربين ، دمشق ، 1974
14- ديوان طفيل ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، 1968م .
15- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد ابو الفضل ، دار المعارف بمصر ، د.ت
16- ذيل الأمالي والنوادر ، لأبي علي القالي ، القاهرة 1314 هـ .
17- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن بناته المصري ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي بمصر 1964 .
18- شرح اشعار الهذليين ، لأبي سعيد السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة المدني ، القاهرة 1965 هـ .
19- شرح القصائد السبع الطوال ، للأنباري ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر 1963 .
20- العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق أحمد أمين وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، طـ1 1965 .
21- عيون الأخبار – لابن قتيبة ، دار الكتب المصرية 1925 م .
22- كتاب الاختياريين ، للأخفش الأصغر ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دمشق 1974 .
23- كتاب أيام العرب ، لأبي عبيدة ، الدكتور جاسم البياتي ، بغداد ، دار الجاحظ 1976
24- مخطوطات المجمع العلمي العراقي ، ميخائيل عواد ، مطبعة المجمع 1979 م .
25- المستجاد من فعلات الأجواد ، لأبي علي التنوخي ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي دمشق 1946 م
26- المعاني الكبير ، لابن قتيبة ، طـ1 ، حيدر آياد الدكن 1949 م
27- نقائض جرير والفرزدق ، لأبي عبيدة ، مطبعة بريل ، ليدن 1905 م

28- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1963 .